



أسماء الشامية

جدل التنظيم الديني والأخلاقي وتنوع الرسائل في المجتمع الجاهلي

إن اكتناه البيئة الجاهلية في سبيل معرفة طبيعة الرسالة الخاتمة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو ما يحاول الكاتب عبدالرحمن حلي التوصل إليه عبر مقاله في مجلة التسامح (المجتمع العربي قبل الإسلام: دراسة قرآنية) ثم عارجاً على تفاصيل البيئة الجاهلية وتقسيماتها البدوية والحضرية وعلاقة أيهما ببيئة النبي محمد، وشارحاً لمكانة مكة التجارية والدينية وصولاً إلى شرح عقائد البيئة الجاهلية طبيعتها وتعاليمها وتأثرها بغيرها من الديانات ومصائرهما وعلاقة كل منهما بديانة الإسلام لكي يصل إلى الرسالة الخاتمة التي استفادت مما سبقها من ديانات.

أجل أن تستقي أخلاقها من الأمم التي تخالطها عبر قوافل الحج والتجارة؟ وإذا كان غير ذلك فربما أمكن حلي أن يقول أن الإسلام قضى على عادات كانت جاهلية حقاً كالاسترقاق والوآد والاحتكار أما أن يعزي نزول الرسالة في أرض مكة باعتبار عقائدها فاسدة - تعريضاً - فإن الأديان بمساوئها ومحاسنها تاريخياً لم يُطبق فيها نص من النصوص بل لم يفهم قبل أن يُطبق بالصورة الأمثل التي تكفل وجود مجتمع متزن روحياً ومادياً.

إذن لا نختلف مع حلي كونه يعزي نزول الرسالة في بيئة جاهلية تماماً وهو ما لم يقله أبداً بل زعمه أن المجتمع الجاهلي ليس أهلاً بما فيه من أديان وعقائد بالتنظيم الأخلاقي رغم اعترافه بتفوق المجتمع حضارياً، فضلاً عن أن طبيعة الأخلاق النسبية تجعل من الصعوبة بمكان تحديد أفضلية أخلاق عقيدة عن أخرى. وهو الأمر الذي يجعل الاقتناع بتحليله فيما يتعلق بأحقية الرسالة الخاتمة عن الرسائل السابقة محط جدل كبير خصوصاً أن كل ديانة تدعي ختام رسالتها.

وفي معرض حديثه عن اختلاط البيئة الجاهلية بالديانات الأرضية والسماوية يبدو مستغرباً رفض حلي موقف أصحاب الديانات التي رفضت دعوة النبي، إذ أن الأقوام التي اعتنقت الدعوة طوعاً قهراً قبلت بالمدح والثناء على خلاف الديانات التي قررت الاحتفاظ بعقائدها التي ورثتها عن آباؤها كالزرادشتية والنصاري وبالأخص اليهود، يُطالعا هذا الخطاب بالفوقية التي تحدثنا عنها سابقاً التي مهد لها الكاتب عبر حديثه عن خلو المجتمع الجاهلي من الروح، إذ أن وجود روح لا يرتبط بمدى ما لدى الرسالة الخاتمة من توجيهات وشعائر وعبادات، فهذه الروح خصيصة بالإسلام وحده، كذلك روح الدين الجاهلي يمكن أن نعزوها إلى رسوخه في الشعر تاليفاً وإلقاءً عبر الأسواق أشهرها سوق عكاظ، بل لا يمكن أن يدل وجود قيم قاسية وظالمة كالوآد على خلو مجتمع ما من الأخلاق خصوصاً عندما لا تكون هذه الأخلاق إسلامية بالضرورة! وإنه من المستغرب أن تكون الجزيرة العربية مُصدرة لرسالة عالمية في الوقت الذي تدعو فيه إلى التخلي عن العقائد المستقلة! فماذا يكون مفهوم حلي للرسالة العالمية؟ أي الرسالة التي تحافظ على دفعة واحدة كل الديانات السابقة فيها؟ أم الرسالة التي تحافظ على أحقية الآخرين في الاعتقاد بعقائدهم؟ أم هي الرسالة التي تأتي بأخلاق جديدة من أجل التوحيد برب واحد؟ مع علمنا أن ديانات شركية كثيرة غير موحدة سادت الجزيرة العربية، وخصوصاً أن ما ينتقده حلي من أخلاق العقائد السابقة كان لرسالة الخاتمة منه نصيب كبير بعدما كُتب لها الرسوخ والانتشار على يد حاملها، فهل تكون الرسائل مثلاً أعلى قبل توطئها؟ أم لا يكون ذلك إلا بظهور رسالة أخرى جديدة في كل زمان كما يزعم رأي وحيد لم يلق حظه من الانتشار والقبول؟



وفي حديثه عن العادات الجاهلية يذكر أمثلة على الاستلاب الاجتماعي لحقوق المرأة كالتمييز ضدها في الإرث والطلاق والنكاح في الوقت نفسه الذي لعبت فيه المرأة دوراً قيادياً مزدوجاً كالمشاركة في التجارة والدفاع عن المجتمع وقيمه، بالإضافة إلى عادات الولاء التي تورث العصبية والثأر والانتقام. وفي ما يتعلق بالفكر الديني قبل البعثة يقول حلي إن القرآن يطالعا بأديان كانت معروفة ولها معتنقوها في ذلك العصر هم من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والمُشركين. أما عن العقائد المتداولة وقتئذ فإنه يُفضل في علاقة معتنقي الأديان ببعضهم وتواصلهم السلمي ويذكر أثر انتفاع الفكر الديني العربي من ديانات اليهود والنصارى ولكنه يرفض موقف اليهود والمُشركين من اعتراضهم لرسالة النبي محمد باعتبارهم قاوموا دعوته بالمر والذس والتحليل والأذى.

ونقول إذا كان حلي وغيرهم من الباحثين ينتصرون لهذا الرأي القائل بتفوق المجتمع الجاهلي حضارياً وعلمياً فضلاً عن وجود اعتقاد روحي لعقائد وثنية ونصرانية ويهودية وغيرها فلم كان نزول الرسالة الخاتمة بديلاً عن هذه الاعتقادات؟ فلئن كانت الجاهلية تعتقد بعقيدة ما - وإن كانت تختلف مع روح وعقيدة الإسلام - فلم لم تبقى الرسالة الخاتمة على هذه العقائد كما هي؟ ولم كان لزاماً لأهل مكة أن يعتنقوا الإسلام كرها بعد أن رفضوا اعتناقه طوعاً؟ بمعنى آخر هل باعتبار الإسلام الرسالة الخاتمة يجعله بديلاً عن عقائد الجاهلية التي تمسك بها أهلها لئلا يظن حلي أن تلك الديانات أصبحت أقلية فيما بعد فهل كان يتوقع حلي استقبلاً حافظاً لرسالة الجديدة لمن ورث عقيدته عن آباءه لئلا يظن حلي على مدى أجيال؟ الأمر الآخر الذي لم يتطرق له حلي هو أن التقدم الحضاري على مستوى تنظيم المجتمع الجاهلي وتجارتها وما ترسخ فيه من علوم وفنون وتقدم علمي ألم يُلهم بيئة متفوقة كهذه من

يميل حلي إلى الرأي القائل بأن النبي كان ينتمي للبيئة الحضرية في المجتمع الجاهلي وليست بيئة أهل البدو المتسمة بالجلافة والغلظة إذ يعتقد أن الإسلام لم يهذب بنزوله إلا النزول اليسير من أخلاق المجتمع الجاهلي، وهو ما سوف يُناقض رؤيته هذه لاحقاً مع رأيه القائل أن الإسلام هذب أخلاقاً كثيرة جعلت من الضرورة تبديل الجاهليين لدينهم من أجل اعتناق الرسالة الجديدة. ويصف الجزيرة العربية قبل البعثة بوصفها مركزاً لشراء وتويع المعتقدات والأديان الأرضية والسماوية ويأتي اختيار هذه المنطقة لنزول النص المقدس فيها لكي تنطلق الرسالة الخاتمة منها فيما بعد إلى العالمية.

ويرجع حلي تسمية القرآن الكريم لمكة بأم القرى إلى محوريته بالنسبة للقرى الأخرى فضلاً عن خلفيتها التاريخية بوصفها مركز تجارة العالم براً وبحراً وبوصفها المدينة التي وضع فيها أول بيت وهو بيتها الحرام وتعاقب الأنبياء عليها، وباعتبارها مصدراً للأمن بسبب قدسيتها إذ أن خلفية مكة الدينية والتجارية بالنسبة لحلي جعلها تمتلك مقومات النظام ما يؤهلها لقيادة ما حولها من حواضر وتنظيم العلاقات واللقاءات بين مختلف الوفود القادمة إليها وبسبب غموض هذا النظام يذكر بعض الإشارات القرآنية لبعض الآليات السائدة في إدارة مكة وقيادتها من ذلك ظاهرة النوادي التي كان يجتمع فيها الناس ويتداولون الشأن العام فضلاً عن مفردات تعبر عن السلطة والشوكة والحكم من ذلك: الجند، الإثبات والإخراج من مكة، الحبس، السجن، أوّل الأمر فضلاً عن مدلولات السلطة القضائية.

ويُعلق حلي أهمية كبيرة في حديثه عن العقائد والأفكار التي كانت سائدة في عصر النبي قبل البعثة بصرف النظر عن أصحاب هذه العقائد أكانوا من أهل مكة أم من الوفود الأجنبية التي يقول عنها الكاتب أن القرآن في خطابه للعقائد كان شمولياً دون تقصّد عقيدة بعينها.

وتُشير الجاهلية إلى بعض العادات الاجتماعية السائدة والأخلاق وقتئذ وعن ماله علاقة بالجانب العقدي فيما لا تصح هذه التسمية على الجوانب الثقافية كون المجتمع الجاهلي مجتمعاً غاية في التطور على مستوى اللغة والأنساب والفلك والاقتصاد والحساب والكتابة وغيرها من فنون وعلوم، ولكن هذه البيئة مثل غيرها من البيئات التي بلغت شأواً من التقدم الحضري والعلمي لكنها لم تُوفق في روحانيتها بل طغى الجانب المادي على مختلف جوانبها وبحسب حلي هذا الطفيل المادي على جانبها الروحي يُوقع المجتمعات في مازق روحية ويسوده الظلم من أجل ذلك جاء إرسال الأنبياء في هذه المناطق لإعادتها لتوازنها الروحي والأخلاقي.